

العلامة وفق ما استجد في أدبيات الفكر السويسري: دراسة في القراءات والتأويلات العربية الراهنة

The mark according to what is new in the literature of the Swiss thought -A Study in current Arabic readings and interpretation-

✉ بن وناس مفيدة²

m.benounas@univ-eltarf.dz

✉ طيب شهناز¹

tebib.chahinez@univ-eltarf.dz

مخبر التراث والدراسات اللسانية

جامعة الشاذلي بن جديد-الطارف/الجزائر

تاريخ النشر: 2023/01/10

تاريخ القبول: 2022/12/28

تاريخ الاستلام: 2022/09/06

ABSTRACT:

ملخص البحث

Through this study, we seek to determine what the mark is in Saussure's original thought in the light of his new discovered manuscripts, according to the current Arabic readings and studies.

The concept of the sign was mentioned in the book Lectures on general linguistics, in a shortened and unclear form, as Saussure wanted to put it. It was stripped of its rhetorical existence and its contextual and textual relationships with other signs. According to what has been updated in the new manuscripts of Saussure, a clear and fundamental difference in the concept of the sign and its characteristics has emerged, and this is what we will show through the current Arabic readings and interpretations.

Keywords: The mark ; A book of lectures in general linguistics ; The Swiss thought ; The current Arabic readings.

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تحديد ماهية العلامة في فكر سوسير الأصيل في ضوء مخطوطاته الجديدة المكتشفة، وذلك وفق القراءات والدراسات العربية الراهنة.

ولقد ورد مفهوم العلامة في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة بشكل مختزل غير واضح المعالم كما أراد سوسير طرحه، وتم تجريدها من وجودها الخطابي وعلاقاتها السياقية والنصية مع العلامات الأخرى. وقد تبين وفقا لما استجد في المخطوطات الجديدة لسوسير اختلاف واضح وجوهري في مفهوم العلامة وخصائصها، وهذا ما سنبيّنه من خلال القراءات والتأويلات العربية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: العلامة؛ كتاب محاضرات في اللسانيات العامة؛ الفكر السويسري؛ القراءات العربية الراهنة.

مجلة لغة - كلام / مخبر اللغة والتواصل / جامعة غليزان (الجزائر)

¹ المؤلف المرسل : طيب شهناز

1. مقدمة:

لقد شغل البحث عن فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1913) وفكره اللساني الأصل أذهان اللسانيين المحدثين والمعاصرين، فمنذ ظهور كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" سنة 1916م الذي جمعه ونشره شارل بالي Charle Bally وألبير سيشهاي Albert Sechehayé وسوسير حاضر بقوة، والبحوث والدراسات تقام هنا وهناك للتعريف بهذا الرجل، وترجمة فكره والعمل على نشره.

لقد عرفت محاضراته إقبالا متزايدا، وكانت السبب وراء التوسع الذي عرفته اللسانيات ومصدرا لأبرز المفاهيم اللسانية المتداولة، والآن نشهد مرحلة مفصلية في المشهد العام للسانيات الراهنة، فمنذ اكتشاف مخطوطات سوسير الأصلية سنة 1996م والدارسون ينادون بضرورة العودة إلى سوسير الأصل، في ضوء أمرين¹:

أولهما: أن بالي وسيشهاي لم يطلعا على كل ما دونه الطلبة من المحاضرات التي قدمها سوسير، وأن ما تمّ نشره ما هو إلا اختزال لفكر وتصورات سوسير.

ثانيهما: ظهور المخطوطات الجديدة المكتشفة التي دونها سوسير بنفسه وقدم فيها فكره الأصل، والتي أبانت عن أفكار تعارض بعض ما ورد في الكتاب الذي جمع وقدم باسمه.

لقد حدث تحول كبير في الدراسات اللسانية الراهنة، حيث أصبحت الأبحاث الجديدة حول سوسير ومخطوطاته تعرف بـ: "السوسيرية الجديدة".

وحسب ما جاء به لسانيون معاصرون في قراءة لسوسير الجديد: نجد تحولات ومستجدات كثيرة حول المنهج السويسري والمصطلحات والأفكار وغيرها. وتعتبر العلامة من بين المصطلحات التي لاقت تمحورا جديدا في مخطوطات سوسير مقارنة بما جاء في محاضرات 1916. وبناء عليه طرحنا الإشكالية الآتية: كيف تحول مفهوم العلامة وفق ما استجدّ في مخطوطات سوسير الجديدة؟ ما الجديد الذي تبين في ماهية العلامة وأركانها وعلاقاتها؟ كيف قدمت الكتابات العربية الراهنة مصطلح العلامة من خلال قراءاتها وتأويلاتها لفكر سوسير في سياق المخطوطات المكتشفة التي تمّ تحقيقها؟

وللإجابة عن التساؤلات السابقة سنقدم مفهوم العلامة في كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" 1916م، ثم نتبع ماهيتها الجديدة وفق ما جاءت به المخطوطات الجديدة. ثم نعرض لأهم الكتابات العربية الراهنة التي قدمت قراءات وتأويلات لمصطلح العلامة في فكر سوسير الأصل ممثلة في مساعي مصطفى غلفان ومختار زواوي.

2. مفهوم العلامة في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة:

اقترن كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" باسم سوسير، وهو الكتاب الذي أرسى دعائم اللسانيات العامة طيلة القرن العشرين، وبقدر ما كان حاسماً في تلقي تصورات سوسير والتعريف بها، بقدر ما كان مصدر جدل بشأن بعض المفاهيم. فالكتاب لم يكن بخط يد سوسير، والناشران لم يحضرا بشكل دائم المحاضرات التي قدّمها سوسير خلال السنوات 1907 و1908-1909، ثم 1910-1911، ودفاتر الطلبة التي تمّ الاعتماد عليها لم تعوض النقص في فهم فكر سوسير، وبعد جمع المحاضرات "شكلاً نص الكتاب انطلاقاً من تلك الملاحظات، تحديداً محاضرات اللسانيات العامة. بينما كان ألبرت رايد لينجر بوصفه المحرر الثالث وصاحب التصور الذي خطّ وفقه الكتاب وهو الوحيد الذي حضر محاضرات فصل الخريف 1907م، ومحاضرات سنتي 1908-1909م، ولكنه لم يحضر المجموعة الثالثة من المحاضرات المهمة بين سنتي 1910-1911، والتي سيكون الجزء الأكبر منها نصوص كتاب المحاضرات"².

وبالتالي فإنّ المعلومات التي قدّمها الناشران سيشهاي وبالي في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م لم يكن مصدرها السماع المباشر، بل النقل عن الطلبة الذين كانوا يحضرون تلك المحاضرات، منه يمكننا القول أنّ ما تضمنه الكتاب لم يكن من خطّ سوسير أو فكره الحقيقي الأصيل ربما لأنّ النقل غير المباشر للمعلومة من غير قائلها والتأويل يفسد الجوهر أو يحيد عنه بعض الشيء رغم التحفظ. وهذا لا يعني أننا ننقص من قيمة هذا الكتاب أو نجحد الجهد الجبار للطلّابين المجدين بالي وسيشهاي؛ فهما قد أرادا بمحاولتهما هذه الحفاظ على فكر أستاذهما الفذّ دو سوسير من الاندثار، فهو علم يستحق الجمع والنشر خاصة في تلك الحقبة الزمنية 1916م، ومع الثورة المعرفية التي أحدثها سوسير -أو كما يصطلح عليها القطيعة الاستيمولوجية- بين اللسانيات الوصفية البنيوية السوسيرية والمناهج التقليدية التاريخية المقارنة السائدة آنذاك.

لقد شغلت العلامة حيّزاً مهماً في كتاب المحاضرات 1916م ف: "عندما يتصفح الباحث كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة يلفي مفهوم العلامة وقد حاز موقعا مقدما إذ به يفتتح الجزء الأول من الكتاب، فيخصص الفصل الأول منه لطبيعة العلامة اللسانية، ولهذا الموقع دلالة على تفضّل شارل بالي وألبير سيشهاي بأهمية مسألة العلامة من فكر دو سوسير، ووعيهما بضرورة تقديمها على سائر المفاهيم الأخرى المتصلة باللسانيات الآنية من جهة، وبمسألة اللسان بوصفه نسقا من العلامات، من جهة أخرى"³. تظهر الأهمية البالغة التي تحظى بها العلامة اللسانية في الفكر السوسيري؛ حيث تحتوي المحاضرات على مفهوم العلامة وعلاقاتها وعناصرها ومميزاتها "ولقد اشتمل الفصل على مباحث ثلاثة هي: العلامة والدال والمدلول، اعتبارية العلامة، الطابع الخطي للدال"⁴. وهذا ما تنبّه له بالي وسيشهاي واستنتجاه حين جمعهما لمحاضرات أستاذهما وتقديمهما في هذا الكتاب.

وحسب ما تضمّنه كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م فسوسير يقصد بالعلامة: "تارة الكل المركب من الصورة الصوتية والمفهوم، والاقتصار به تارة أخرى على الصورة الصوتية"⁵. ويضيف بالي و سيشهاي أنّ: "العلامة اللسانية لا تربط بين شيء واسم، بل بين مفهوم concept وصورة صوتية image acoustique وليست هذه الأخيرة الصوت المادي، الذي هو فيزيائي خالص، بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت، أو التمثيل الذي تكشف عنه لنا حواسنا، وهي صورة حسية، ولئن وصفناها أحيانا بالمادية، فإنّ هذا الوصف لا يخرج عن هذا المعنى، مقارنة بالعنصر الثاني من الترابط، أي المفهوم الذي هو أكثر تجريدا"⁶. ويظهر ممّا ذكره بالي و سيشهاي نقلا عن دو سوسير أنّ العلامة اللسانية هي ترابط بين شقين اثنين هما: المفهوم والصورة الصوتية؛ حيث يقصد الصوت ذلك الأثر النفسي الحاصل في الذات والممثل في الحواس المختلفة ومن جهة أخرى فإنّ المفهوم هو الآخر نفسي لكنّه أكثر تجريدا من الصوت -على حدّ تعبيرهما- وهذا يكشف تلك الطبيعة النفسية التي تميّز العلامة اللسانية.

ثمّ ينتقل سيشهاي وبالي إلى تسمية جديدة لعنصري العلامة وهما مصطلحي الدال والمدلول بدل المفهوم والصورة الصوتية وذلك لأنّ: "مصطلح العلامة، في العرف الجاري، عادة ما يحيل إلى الصورة الصوتية فقط، ولكنهما يبقيان على مصطلح العلامة بحجة غياب مصطلح آخر يفيد معناه"⁷. وهذا راجع إلى أنّ أستاذهما كان يطلق مصطلح العلامة مرة على الصورة الصوتية والمفهوم وفي أحيان أخرى يطلقه على الصورة الصوتية فقط وهذا ما يشكل اختلافا منهجيا في الاستعمال المصطلحي.

تعرف العلامة على أنّها: "وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين، وتضم جانبين أساسيين هما الدال SIGNIFIANT والمدلول SIGNIFIE، فالدال هو الصورة السمعية التي تدلّ على شيء ما أو تعنيه ككلمة شجرة مثلا، أمّا المدلول هو التصور أو الشيء المعني كالفكرة الذهنية التي نحملها حول الشجرة"⁸. فسوسير يقصد بالدال الصورة السمعية أو ما يسمى المتتالية الصوتية، أمّا المدلول هو ذلك المفهوم أو الصورة الذهنية المكونة في ذهن الشخص حول الدال.

وللعلامة اللسانية خصائص حددها كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م تتمثل في:⁹
أ- العلاقة الاعتبارية بين الدال والمدلول: تعتبر هذه العلاقة الرابطة بين طرفي العلامة اللسانية مهمة جدا حيث أنّها: "قائمة على الاصطلاح غير المعلل، فالعلامة اللغوية باعتبارها الرابطة بينهما -أي الدال والمدلول- قائمة على الاتفاق بين مجموعة الأفراد داخل مجتمع معيّن، فالإنسان لا يستطيع أن يتعرف على المعنى الذي تشير إليه الأصوات عن طريق إيحاءها أي لا وجود لأية علاقة ضرورية"¹⁰. ومنه فإنّ سوسير يرى أنّ العلاقة القائمة بين طرفي العلامة: الدال والمدلول غير مبررة ولا ضرورية؛ أي اعتبارية بمفهومه، وذلك لأنّ المسميات لا ترتبط بمفهومها، فعندما نطلق اسما ما على مفهوم معيّن فإنّ ذلك المسمّى والاصطلاح لا علاقة له بالمعنى؛ على سبيل المثال: إنّنا نطلق مصطلح كتب

ونريد بها مجموعة من الكتب، ونجد أننا نستعمل نفس الأصوات في متتالية أخرى عندما نصطلح على الإحساس المكبوت والمحصور في النفس "كبت"، فلا علاقة مبررة بين المصطلحين. ويبيّن سوسير ذلك بالمثال الشهير لكلمة "أخت" في العربية و "SISTER" في الفرنسية و "SOEUR" في الانجليزية. وهذا ما يفسّر الاختلاف بين الألسنة البشرية ويخلق تنوعاً في الجهاز المصطلحي والثراء المعجمي الدلالي، و الأهمّ من ذلك التمايز بين الألسنة البشرية.

ب-خطيّة الدال: حيث يقول سوسير: "لما كان الدال ذا طبيعة سمعية فإنّه يمتدّ منتشراً في الزمان فقط، ثمّ إنّ خصائصه مستعارة من الزمان فالدالّ يمتاز بكونه ممتداً وهذا الامتداد يمكن أن يقاس من بعد واحد هو خط طولي"¹¹. ومن خلال ما تقدّم نلاحظ جلياً تأكيد سوسير على اللغة المسموعة وتقديمها على المكتوبة؛ ثم يذكر خاصيتين مميزتين للدال أولهما: أنّه ممتد ويعني ذلك أنه عبارة عن متتالية من الأصوات المسموعة أو المكتوبة، وثانيهما ممتدة على خط واحد طولي؛ أي بالتتابع والتوالي دون الإخلال بالنظام الذي يحكم الدال بصفة مطلقة

ومما سبق يمكننا القول أنّ العلامة اللسانية في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م هي: الكل المركّب من الدال والمدلول ، حيث كان في بادئ الأمر يستعمل مصطلحي المفهوم والتصور، لكن مع تقدم المحاضرات وتحديداً مع السنوات الأخيرة استبدل سوسير المصطلحين السابقين بأخرين أدقّ وأوضح دلالة هما: الدال والمدلول ؛ وذلك لتفادي الإشكال المصطلحي القائم في أذهان المتلقين. ويؤكد سوسير على العلاقة التي تربط طرفي العلامة ، ويشبههما بوجهي العملة الواحدة حيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، مشيراً من جهة أخرى إلى مميزات هذه العلاقة متمثلة في الاعتباطية والخطية.

3. ماهية العلامة في فكر سوسير الأصيل:

بعد فترة زمنية من ظهور كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م والذي يتضمّن أفكاراً لسوسير كان قد قدّمها كمحاضرات لطلبته في الجامعة ظهرت مجموعة من المخطوطات الجديدة التي ردها الباحثون إلى سوسير؛ حيث اعتبروها مصدراً يمثّل الفكر الأصيل لسوسير الذي لم يظهر إلا مؤخراً مع حركة سميت السوسيرية الجديدة حيث يقول مصطفى غلفان: "ارتبطت حركة العودة إلى سوسير بالبحث عن سوسير الحقيقي le vrai Saussure أو سوسير الأصيل مقابل سوسير الخيالي في سياق مقابلة فيلولوجية كانت الغاية منها توثيق نصّ دروس في اللسانيات العامة في ضوء المصادر الأصول المخطوطة التي اعتمدها بالي وسيشهاي في إخراج النص".¹²

ومن خلال ما ذكره غلفان فإنّ المقارنة بين النصوص المخطوطة التي عثر عليها مؤخراً والمنسوبة إلى سوسير وما نشره بالي وسيشهاي ممثلاً في محاضرات 1916م لازمة وحتمية حيث وجهت البحث اللساني الحديث إلى مسار جديد يحاول معرفة سوسير الحقيقي الأصيل من خلال ما تركه من

مخطوطات. ولقد تباينت المصادر الأصول أو كما يطلق عليها باحثون آخرون اسم المخطوطات حيث انقسمت إلى:¹³

-مجموعة من النصوص التي احتوت ملحوظات كتبها سويسر بنفسه نشرها روبرت غودل ROBERT GODEL سنة 1954م. وبعد ذلك نشر غودل أيضا نصّا لسويسر يتعلق بمقدمة دروس العام الثاني (1908م-1909م)، وطبعة نقدية نشرها رودلف انغلر RUDOLF ENGLER ما بين 1967م و1974م تضمنت المصادر الأصول التي اعتمدها بالي وبيشها في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة. كما تمّ نشر العديد من النصوص الأصول الكاملة لدروس في اللسانيات العامة وهي دفاتر الطلبة الذين حضروا مباشرة هذه الدروس بجامعة جنيف ما بين 1907م و1911م.

-ومع مطلع القرن الحادي والعشرين ظهر مؤلف جديد لسويسر بعنوان كتابات في اللسانيات العامة يضمّ مسودّات نصوص سويسر المخطوطة التي عثر عليها سنة 1996م.

وبالتالي فإنّ المخطوطات السابقة الذكر والتي ظهرت بداية من عام 1954م هي التي تمثل الفكر الأصل لسويسر أو ما يسميه ثلة من الباحثين "سويسر الحقيقي". ومنه أثير البحث والتنقيب حول ماهية هذه المصادر الأصول والمتن الذي تضمنته وهل هو ذات المعنى والمبنى الذي وجدناه في محاضرات 1916م؟.

إنّ مصطلح العلامة غامض وغير واضح حيث: "وردت إشارات سويسر الصريحة إلى غموض لفظ العلامة في بعض فقرات مؤلفه في الماهية المزدوجة للغة التي نبّه فيها إلى الصعوبات الناجمة عن استعمال لفظ العلامة في اللسانيات. ويتجاوز الالتباس الذي يتضمنه لفظ العلامة حدود المسألة الاصطلاحية ذاتها لأنّه يعكس الطبيعة الحقيقية للأشياء التي تدلّ عليها كلمة {علامة} نفسها"¹⁴. مصطلح العلامة غامض، حمّال أوجه ودلالات في اللسانيات عامة وفي فكر سويسر خاصة، وهذا راجع إلى تعدد المصادر والتأويلات المحتملة للدارسين من ناحية، ولقصور الترجمة في بعض الأحيان للإبانة عن المعنى الحقيقي وتعدد الترجمات والمفاهيم. وسويسر يستعمل لفظ العلامة للدلالة على شيئين:¹⁵

أ-الصوت والدلالة معا.

ب-الجانب الصوتي في العلامة فقط.

وبالتالي فإنها بهذا المعنى أقرب إلى الإشارة الصوتية أو الدال لأن سويسر كان مرة يطلق لفظ العلامة على الثنائية : دال ومدلول، ومرة أخرى يقصد بالعلامة الدال فقط وهذا الاستعمال غير الثابت على طول كتاباته خلق لبسا وتعددا مصطلحيا حيث يقول سويسر: "هناك مجال أول داخلي ونفسي توجد فيه العلامة باعتبار أنّها صوت ودلالة لا ينفصل أحدهما عن الآخر؛ وهناك مجال ثان خارجي لا توجد فيه إلا العلامة التي تختصر في تتابع الموجات الصوتية التي لا تستحق بالنسبة لنا سوى اسم الوجه الصوتي figure vocale"¹⁶.

ومنه يمكننا القول: إنّ ماهية العلامة في فكر سوسير الأصيل تتمحور أساساً حول مبدئين أساسيين هما:

-التأكيد على العلاقات بين العلامات أي انتشار العلامة من العزلة التي كانت تطبعها في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م.

-كما لا تقتصر العلامة على التطابق والتلازم بين وجهيها فقط بل يتعدى ذلك إلى مجال آخر هو التأويلات أو ما يسمى تفسير النصوص.

- كما تتسم العلامة تبعاً لما جاءت به السوسيرية الجديدة ومخطوطات سوسير بميزتين بارزتين¹⁷:

حيث أنّ تعريف العلامة في الدروس التي نشرها بالي وسيشهاي تعريف اختزالي: فالعلامة اللغوية موضوع ابستمولوجي مركب عنده، مصطلح عابر transversal لكل طبقات اللسان، وكل مستويات تعقيد اللسان موضوع التحليل: الطبقة الصوتية والصرفية والتركيبية، فلكل مستوى من هذه المستويات علاماته. فمسمى سوسير صياغة سيميائيات موحدة للغة تسلم بالطبيعة المنسجمة لموضوعها، فالعلامة موضوع سيميائي يضمّ العلامات اللغوية وغير اللغوية حيث يضمّ كل مستوى من مستويات الكلام علامات بدءاً من أصغر مستوى وهو الصوتي -الفونيمات- مروراً بالصرفي -المورفيمات- إلى التركيبية-سنتاكس- وكل هذه المستويات تتضافر مكونة العلامة اللسانية ذات المفهوم والصورة.

إضافة إلى ذلك فإنّ العلامة تخضع لمبدأ التجريبية ومعناه أنّ العلامة باعتبارها موضوعاً للعلم هي موضوع تجريبي، حيث تصبح العلامة ظاهرة علمية تدرس تجريبياً وتطبق عليها أسس المنهج العلمي التجريبي كالملاحظة؛ فإذا كانت العلامة مكونة من مفهوم مختزن في ذهن متكلم اللغة يرى سوسير أنه بالإمكان ملاحظة ذلك علمياً.

إنّ العلامة ذات مجال واسع يضمّ مجموعة من العلامات الصغرى التي ترتبط فيما بينها بموجب علاقات مختلفة، ولولا وجود هذه العلاقات لا يمكننا تسمية هذه الوحدات علامات لأنها لا يمكن أن تكون بمعزل عن باقي الوحدات، فالترابط والعلاقات أساسيين لا بدّ منهما لتحقيق العلامة. أما عن عنصري العلامة الدال والمدلول فقد شهدا تغييراً وتحولاً وفق ما جاءت به أدبيات سوسير الجديدة حيث: "إنّ تمثّل بالي وسيشهاي للمدلول باعتباره كيانه نفسياً متماهياً مع التصورات بمثابة تحريف لمقاصد سوسير، لأنّ التصورات عنده كيانات غير لغوية لا تنتمي إلى عالم اللسان... وفي هذا السياق الموسّع تقترن نظرية الدلالة في الإطار السوسيري بنظرية الوحدات اللسانية، لذلك لا يمكن للدلالة أن توجد إلا في إطار تتعالق فيه الكيانات الدال/المدلول من جهة والنسق من جهة أخرى، وبالتالي لا يمكن أن نتصور إمكانية تشكيل نظرية للمحتوى مستقلة عن نظرية للعبارة في صيغة نظريتين منفصلتين فهما مترابطتان بمقتضى ترابط الدال بالمدلول"¹⁸ فالعلامة ناتج لإتحاد بين عنصريها الدال والمدلول بشرط عدم عزلها عن سياقها أو نسقها حيث لا يمكن أن يكون المحتوى

بمعزل عن المستوى التعبيري فترباط الدال والمدلول ناشئ عن ترابط المستويين السابقين محتوى/عبارة.

وبالانتقال من مستوى الكلمة إلى مستوى أعلى وهو مستوى النص تصبح العلامة ناتجا عن نص ف: "العلامات ليست هي من تشكل النصوص، بل النصوص هي التي تكوّن العلامات، فالجزء لا معنى له إلا بموجب علائق النسق. ومعنى الملفوظ ليس تجميعا لمعنى الوحدات الصغرى المكونة له مثلما أنّ النص ليس نتاجا لسلسلة الجمل التي تكوّنه"¹⁹. فالعلامات جزء من النصوص ونتاج عن تجمعها، والعلاقات المختلفة مضافة إلى النسق أساس لتشكل العلامات، وهذا ما يفسر الرؤية الأصلية التي ظهرت في مخطوطات سوسير وهي عدم إهمال النص والعلاقات التي تشكل العلامات لا العزلة والاختزالية اللتان كانتا تظهران في محاضرات 1916م.

4. القراءات العربية الراهنة للعلامة:

دأب اللسانيون العرب على ترجمة كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" 1916م بعد عهد طويل من ظهوره في فرنسا، حيث تعددت الترجمات والتأويلات للمفاهيم والأفكار التي وردت في هذا الكتاب المنسوب لفرديناند دو سوسير مما أدى إلى تباين القراءات لهذا الكتاب وفي هذا الصدد يقول مختارزواوي: "إنّ التهافت على ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، في أثناء ثمانينيات القرن الماضي، لم يصحبه، كما كان من المفروض أن يكون، عناية من قبل المترجمين بالمعارف الموسوعية التي ترتبط بفكر دو سوسير... ولئن كان جهل الباحثين العرب الأوائل بالدراسات النقدية والفيلولوجية التي صاحبت انتشار كتاب المحاضرات في المحافل الدولية سببا في إخفاق ترجمة كتاب المحاضرات"²⁰ وبالتالي فإن الترجمة العربية لمحاضرات 1916م كانت هي الأخرى سببا في عدم وضوح فكر سوسير، وأحدث ذلك بعض الغموض في المصطلحات اللسانية ومفاهيمها على نحو يغير تماما ما قصده صاحبها.

ومؤخرا ومع ظهور مخطوطات سوسير التي تترجم فكره الأصل بداية من 1954م، و 1957م حتى 2002م ظهرت ترجمات أخرى لهذا الفكر وقراءات عربية أيضا ومن أبرز المهتمين . بهذا المجال والذين قدموا دراسات رائدة وتستحق البحث والتنقيب في مضامينها نجد: اللساني المغربي مصطفى غلفان، واللساني الجزائري مختارزواوي، وسنقدم في هذه الدراسة أبرز ما جاءت به قراءات هاذين اللسانيين الفذّين في موضوع العلامة.

1.4. مصطفى غلفان:

كتب مصطفى غلفان العديد من المؤلفات في مجال السوسيرية الجديدة، ومن أبرزها كتاب: "اللغة، اللسان، العلامة عند سوسير"، كتاب "في سياق التلقي الجديد" حيث قام بعرض أهم القضايا والمفاهيم السوسيرية الجديدة منذ ظهور المخطوطات الجديدة لسوسير.

كما تحدث عن العلامة في فكر سوسير الأصيل بإسهاب في فصل مستقل من كتابه: "اللغة، اللسان، العلامة عند سوسير" حيث يقول: "إنّ الإشارة إلى لبس لفظ العلامة ليست مرتبطة بفترة إلقاء الدروس في اللسانيات أثناء دروس العام الثالث (1910-1911)، وإنّما وردت إشارات سوسير الصريحة إلى غموض لفظ العلامة في بعض فقرات مؤلفه في الماهية المزدوجة في اللغة التي نبّه فيها إلى الصعوبات الناجمة عن استعمال لفظ العلامة في اللسانيات. ويتجاوز الالتباس الذي يتضمنه لفظ العلامة حدود المسألة الاصطلاحية ذاتها لأنه يعكس الطبيعة الحقيقية للأشياء التي تدلّ عليها كلمة {علامة} نفسها. وتحدّث سوسير عن تعدد دلالة العلامة وتنوعها انطلاقاً مما نلاحظه عادة من أنّ العلامات المتنوعة قد يكون لها تصور ذهني واحد concept: وأنّ العديد من التصورات أو المفاهيم يمكن أن تعبر عنها علامة واحدة".²¹

يظهر انطلاقاً مما قاله غلفان أنّ الغموض الذي يطبع لفظ العلامة كان حاضراً في فكر سوسير وعقله منذ البداية، لكن هذا لم يظهر في محاضرات 1916م، ويرد غلفان هذه الالتباسات إلى مخطوط ظهر مؤخراً لسوسير بعنوان في الماهية المزدوجة للغة، لكن هذا المخطوط كان من أوائل كتابات سوسير قبل محاضرات 1916م لكنه لم يظهر إلا في الآونة الأخيرة. حيث يفهم من ذلك أنّ العلامة في فكر سوسير الأصيل يمكن لها أن تدل على معنى أو مفهوم ذهني واحد، كما يمكن أن يكون للمفاهيم الذهنية متعددة علامة واحدة، وهذا الالتباس يختص بالجهاز المصطلحي المفاهيمي للفظ العلامة في اللسانيات. كما "يلج سوسير في موضع آخر وبالوضوح نفسه على الدلالة الثنائية للفظ العلامة، فهي إمّا الصوت وحده، وإمّا الصوت والدلالة معاً. غير أنّه كان يرجح الاستعمال الثاني للفظ العلامة أي أنّها صوت ومعنى"²² أي أنّ سوسير حسب غلفان كان يتأرجح في استعماله لمصطلح العلامة بين ما هو صوتي فقط تارة، وما هو صوتي دلالي تارة أخرى؛ كما أنّه يختار الاستعمال الثاني ويحبّذه وهذا ربما يؤكد طبيعة ازدواجية أو الثنائية التي يجعلها سوسير مبدءاً رئيسياً في محاضراته وخاصة في جوهرية اللغة، فالعلامة مبنية على ثنائية ازدواجية للصوت والمفهوم أو كما يسميها سوسير في مواضع أخرى العبارة والمحتوى، أو الدال والمدلول إلى غير ذلك من المصطلحات الكثيرة التي وجدت في محاضرات 1916م والمصادر الأصول.

ويذكر غلفان في موضع آخر: "إنّ التعرف على كنه العلامة (أو الرمز) لم يتمّ إلا عندما أدرك سوسير أنّ اللغة LE LANGAGE ليست أكثر من حالة خاصة من نظرية العلامات... وتعدّ هذه الرؤية السيميولوجية القائمة على مبدأ انتقالية العلامة بمثابة تجاوز واضح لتصور سوسير في دروسه في اللسانيات ما بين 1907م و1911م التي تحصر العلامة في كونها مجرد توليف بين الصوت والمعنى أو مجرد تقابل بين المنطوقات والتصورات"²³ فالعلامة بمفهومها السوسيري الأصيل وكأنّها أحدثت قفزة نوعية وانتقالية واضحة بين ما وردت عليه في محاضرات 1916م المنشورة لسوسير وبين ما خطّه

سوسير بيده ولم يرضوء النشر والظهور في الساحة العلمية إلا مع 1954م، فالفرق بين العاملين واضح جدا حسب القراءات التي يقدمها غلفان وغيره من اللسانيين والدارسين.

وعندما يتحدث غلفان عن الزوج الاصطلاحي للعلامة وهما: الدال والمدلول يقول: "قام الناشران بتعميم استعمال الزوج الاصطلاحي دال ومدلول على فقرات دروس في اللسانيات العامة دون أدنى مراعاة سواء للسياق الزمني أو المعرفي الذي وضعت فيه ثنائية دال/مدلول أو لطبيعة الهواجس الاصطلاحية التي شغلت سوسير باستمرار، وعانى منها كثيرا بحثا عن ألفاظ دقيقة مناسبة للتعبير عن تصورات ومفاهيمه الجديدة. . . . حيث يتبين من المصادر الأصول أن مصطلح علامة وما يرتبط به مثل: دال/مدلول لم يتم تقديمه بهذه البساطة المفرطة التي يظهر بها في نص دروس في اللسانيات العامة"²⁴ ويظهر جليا أن سوسير كان يكابد مشقة كبيرة وتخطيا مصطلحيا فضيعا، فالمفاهيم والتصورات حاضرة في ذهنه لكنه يعاني ارتباكاً واضحاً في تخييره للمصطلحات الدقيقة ذات التعبير الصحيح، حيث كشف عن هذه المشكلة في المصادر الأصول ويرجع سبب استعماله لمصطلحي دال/مدلول إلى الرغبة في "إضافة تحسين على صياغة الحقيقتين أي اعتبارية العلامة وخطيتها باستعمال اللفظين دال ومدلول"²⁵ فالخاصيتين اعتبارية العلامة وخطية الدال ارتبطت بالزوج الاصطلاحي دال/مدلول في المصادر الأصول.

والمقصود باعتبارية العلامة عند سوسير في المصادر الأصول حسب ما قدمه غلفان هو: "أن الدال لا يرتبط بأي صلة بالمدلول؛ أولنقل إنه لا رابط بين الدال والمدلول الذي يمثله حسب التأويل المزدوج لاعتبارية العلامة. فما سمّاه الناشران اعتبارية العلامة كان ينبغي أن يطلق عليه اعتبارية الدال، والتأويل الهادف في نص دروس في اللسانيات العامة إلى توسيع دلالة اعتبارية العلامة وتعميمها لتتجاوز حيّز اعتبارية الدال هو تأويل خاص بالناشرين لم يرد عند سوسير"²⁶.

ومنه فإن غلفان من خلال قراءته لسوسير في ضوء مخطوطاته الجديدة يكشف مجموعة من النقاط المتعلقة بالعلامة حيث تعدّ العلامة متنوعة فيمكن لأكثر من علامة أن تدلّ على تصور واحد، كما يمكن للعديد من التصورات أن تدلّ على علامة واحدة، ومن جهة أخرى يحدّد الطبيعة المزدوجة للعلامة حيث هي كيان صوتي ودلالي في الآن ذاته.

ويضيف غلفان خاصية اتسمت بها اللغة فهي حالة خاصة من علم العلامات وهذا ما وضحته دروس 1907-1911. حيث تجاوزت ما كان معروفا بأنّ العلامة ربط بين الصوت والمعنى.

كما يكشف غلفان أيضاً من خلال قراءته لسوسير ومخطوطاته أن سوسير لم يعمّم استعمال مصطلحي الدال والمدلول كما فعل بالي وبيشيهاي في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م، بل كان يعاني ارتباكاً كبيراً في تخير المصطلحات وهي متعددة من مثل: الصوت والمفهوم أو العبارة والمحتوى، أو الدال والمدلول.

2.4. مختار زواوي:

لقد قدم مختار زواوي مجموعة من الدراسات التي تنضوي تحت ما يسمى السوسيرية الجديدة حيث أَلَفَ العديد من الكتب في هذا المجال منها على سبيل الذكر لا الحصر: كتاب "من المورفولوجيات إلى السيميائيات"، كما ترجم مخطوط سوسير الموسوم ب: "في جوهرية اللغة" الذي حققه سيمون بوكي رودلف انغلر، والمقالات التي كتبها حيث قدّم فيها قراءة وتأويلا لفكر سوسير من خلال مخطوطاته الجديدة، حيث يشيد زواوي بقيمة هذه المخطوطات قائلا: "ولعلّ الخصيصة الأبرز لهذه المخطوطات أنّها تعيد الصلة من جديد بفكر سوسير الأصيل بعد أن انقطعت السبل بالباحثين المحدثين عنه، نتيجة تعلقهم بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعه شارل بالي وألبير سيسيهاي وأخرجاه إلى الناس ثلاث سنوات بعد موته (أي سنة 1916م) ونسباه إليه... وصحيح أن هذا الكتاب فيه شيء من المسائل التي يمكن ردها بجهد من التمهيص والتدقيق إلى سوسير، لكنه لا يمكن أن يرقى إلى ما تنطوي عليه هذه المخطوطات"²⁷. تظهر القيمة التي تكتسبها هذه المخطوطات مقارنة بمحاضرات 1916م فالفارق واضح بين النص الأصلي لصاحبه والمنقول عن لسانه، حتما ستحدث فجوات وربما هفوات تحيد بالنص عن جوهره.

إنّ المتصفح لكتاب في جوهرية اللغة الذي ترجمه مختار زواوي يجد المبحث الخامس وقد وسمه ب: "مسائل في علامة دو سوسير" قدّم فيه زواوي مفهوم وموقع العلامة في محاضرات سوسير 1916م ثمّ مفهومها وموقعها في كتابات دو سوسير الجديدة (مخطوطاته)، والمتمعن في هذا المبحث بالتحديد يجد اختلافا جوهريا بين العلامة المقدمة في محاضرات 1916م وما استجدّ في مخطوطات سوسير.

يقول مختار زواوي: "ولعل أهم الخصائص التي اتصف بها هذا التفكير واختلافه الجذري عما ألفناه من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة انتشار العلامة من العزلة التي وسمته في كتاب المحاضرات، إذ بينما تبرز العلامة في كتاب المحاضرات هذا معزولة عن علاقاتها مع العلامات الأخرى، واكتفائه بوصفها كلاً مكوّناً من دال ومدلول، تجتهد كتابات دو سوسير الجديدة، وخاصة في كتاب في جوهرية اللغة في التوكيد على هذه العلاقات التي تنعقد بين العلامات، بل والتوكيد على عدم أسبقية العلامات على هذه العلاقات"²⁸ فالعلامة في مخطوطات سوسير الجديدة تتجاوز فكرة العلاقة بين الدال والمدلول، وتخرج عن دائرة العزلة التي اتسمت بها في محاضرات 1916م وربما هذا نتيجة الفهم المتذبذب الذي ترجمه الناشران وهما يجمعان محاضرات أستاذهما، إضافة أنّ العلامة في فكر سوسير الأصيل تظهر في مجموع العلاقات التي تحصل بين طرفيها مع التأكيد على أسبقية هذه العلاقات. وبالتالي فالتحول الذي حدث لمصطلح العلامة يصحّ أن نطلق عليه ما يسمى ب"التحول الجذري الكلي" فالدارس لكتاب محاضرات 1916م والمطلع على ما نشر مؤخرا لفكر سوسير الجديد يحس هذا التحول و الفارق الكبير بين ما أراده هذا الرجل وما كتب عنه.

وتشغل العلامة مجالا آخر حيث "لا يقتصر تصور دو سوسير الأصيل هذا على طبيعة العلامة على نحو ما جئنا على وصفها، بل يتعداه إلى مجال آخر من مجالات الفكر الإنساني، ونعني به مجالات التأويليات وتفسير النصوص، إذ أنّ اعتبار العلامة لحظة من لحظات التأويل يؤدي التوكيد على أولية الكلي (النص) على المحلي (العلامة)"²⁹ يبين مختار زواوي مما قاله وهو يترجم كتاب في جوهرية اللغة لسوسير أنّ العلامة لها مجال آخر تدرس من خلاله وهو المجال التأويلي أو التفسيري حيث: "إنّ التعرف على العلامة لا يتمّ إلا في أثناء القراءة، وإنّ القراءة تحدث تغييرا في النص"³⁰. أي أنّ القراءة والتأويل والتفسير للنص والعلامات هي التي تحدد المعنى مع ضرورة أسبقية النص على العلامات.

ومن خلال ما قدّمه مختار زواوي نستنتج أنّ العلامة في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م كانت تطبعها العزلة حيث وردت منفصلة عن باقي العلامات، واقتصرت على كونها كلّ متكون من دال ومدلول، أمّا المخطوطات الجديدة لسوسير أعطت للعلامة مفهوما جديدا قائما على تلك العلاقات التي تربط العلامات بعضها البعض من جهة والتي تسبق العلامات في الترتيب، وترتبط العلامة بالمعنى والتأويل والتفسير من جهة أخرى.

5. خاتمة:

ختاما نخلص انطلاقا من هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج:

-العلامة كما وردت في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة 1916م الذي نشره شارل بالي وألبير سيشهاي تعني الكل المتكون من عنصرين هما الدال والمدلول دون أي تفصيل أو سرد لمختلف المحطات التي مرّ بها هذا اللفظ ومصطلحاته المختلفة، حتى يستقر على هذه التسمية مع نهاية دروس العام الثالث حيث استعمل سوسير دال/مدلول بعدما كان يطلق عليهما في بداية المحاضرات تسميات مختلفة منها: المفهوم والصورة الصوتية.

-مفهوم العلامة في محاضرات 1916م اختزالي وغير واضح المعالم كما أراد صاحبه تقديمه. -تغير المعنى المصطلحي والاستعمالي للفظ العلامة مع ظهور مخطوطات سوسير التي تمثل فكره وأدبه اللساني الأصيل، حيث تطلق تارة على الزوج المصطلحي دال/مدلول، كما تطلق تارة أخرى على الصورة الصوتية فقط أي الدال. واختار سوسير الثنائية دال/مدلول لأن منهجه السوسيري مبني على فكرة الثنائية من جهة، وللدلالة على اعتبارية وخطية الدال من جهة أخرى.

-قدم مصطفى غلفان ومختار زواوي قراءات لسانية رائدة في السوسيرية الجديدة تستحق الدراسة والتحليل. فهما حاولا قدر الإمكان تقديم سوسير الحقيقي للقارئ العربي من خلال فكره الأصيل ومخطوطاته الجديدة.

-يتسّع البحث ويطول في أدبيات سوسير الراهنة وهذه الدراسة يمكن أن تفتح آفاقا جديدة للدارسين والباحثين في السوسيرية الجديدة. للبحث في فكر سوسير الأصيل وتقديم قراءات عربية جديدة لهذا اللساني الفذ.

6. الهوامش:

- ¹ - السيد بريك محروس، (2017م)، التلقي العربي الراهن لسوسير في ضوء مخطوطاته المكتشفة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد 10، العدد 2، ص: 1313.
- ² - عبد القادر فهم شيباني، (2018م)، أسرار التأليف هكذا سمعنا المعلم في كتاب: محاضرات في اللسانيات العامة، مجلة أيقونات، المجلد 6، العدد 6، ص: 13.
- ³ - فرديناند دو سوسير، (2019م)، في جوهر اللغة، ترجمة: مختار زواوي، ط 1، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية-ناشرون-، ص: 106.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص: 106.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص: 109.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص: 107.
- ⁷ - المرجع السابق، ص: 108.
- ⁸ - ناصر حاج عزام، العلامة اللغوية عند فرديناند دي سوسير، مجلة مشكلات الحضارة، العدد 2، ص: 13.
- ⁹ - ينظر المرجع نفسه، ص: 13.
- ¹⁰ - فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبد القادر قنيبي، افريقيا الشرق، المغرب، ص: 105.
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص: 103.
- ¹² - مصطفى غلفان، (2017م)، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص: 40، 41.
- ¹³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 40.
- ¹⁴ - مصطفى غلفان، (2017م)، اللغة، اللسان، العلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 19.
- ¹⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 20.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص: 22.
- ¹⁷ - محمد الملاح، راهنية سوسير من خلال برنامج السوسيرية الجديدة، مجلة اللسانيات العربية، السعودية، ص: 22.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص: 18.
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص: 17.
- ²⁰ - فرديناند دو سوسير، (2019م)، في جوهر اللغة، ص: 111.
- ²¹ - مصطفى غلفان، (2017م)، اللغة، اللسان، العلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول، ص: 24.

- ²² - المرجع نفسه، ص: 24.
- ²³ - مصطفى غلفان، (2017م)، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، ص: 172، 173.
- ²⁴ - المرجع نفسه، ص: 274.
- ²⁵ - مصطفى غلفان، (2017م)، اللغة، اللسان، العلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول، ص: 329.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص: 330.
- ²⁷ - مختار زواوي، (2019م)، من المورفولوجيات إلى السيميائيات مدخل إلى فكر فرديناند دوسوسير، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ص: 01.
- ²⁸ - فرديناند دي سوسير، (2019م)، في جوهري اللغة، ص: 116.
- ²⁹ - المرجع نفسه، ص: 117.
- ³⁰ - المرجع نفسه، ص: 117.